



طَلَقَتِ نُبُوءًا

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي



العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

أزمة السويس الحاضرة دائماً في كوارث بريطانيا.. لماذا؟

كريمة الروبي

طلقة تنوير 77: وعي الضرورة عربياً

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1
أيلول 2021

- أزمة السويس الحاضرة دائماً في كوارث بريطانيا.. لماذا؟/ كريمة الروبي
- في الوظيفة الجغرافية-السياسية للأيديولوجيا: وعي الضرورة عربياً/ إبراهيم علوش
- الإنسان العربي في خضم تنازع الأولويات/ بشار شخاترة
- التنمية في إطار النيوليبرالية: المغرب نموذجاً/ إبراهيم حرشاي
- مفهوم "الأمة" في العصر العربي الوسيط (1988)/ ناجي علوش
- الصفحة الثقافية: الفيلم السوري (لآخر العمر)/ طالب جميل
- قصيدة العدد: شمس العروبة/ رشيد سليم الخوري
- كاريكاتور العدد: من المسافة صفر...

لمتابعتنا انظر:

لمتابعتنا على فيسبوك، ابحث عن:
لائحة القومي العربي/ الصفحة الرسمية

روابط صديقة:

موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:

arab.nationalist.moderator@gmail.com

في عام 1842م حدثت مذبحة مروعة للجيش البريطاني في كابول خلال الحرب الأنجلوأفغانية قتل فيها كامل الجيش ولم يبقَ على قيد الحياة سوى الطبيب برايدون الذي حكى القصة المروعة لمقتل أكثر من 16000 فرد من أفراد الجيش البريطاني وذويهم على يد رجال القبائل الأفغانية أثناء رحلة الانسحاب الكبرى للجيش المحتل من كابول عقب ثورة الشعب الأفغاني. من البديهي أن يستدعي البريطانيون تلك الأحداث على خلفية خروجهم المنزل من أفغانستان في الخامس عشر من أغسطس الجاري، ولكنهم استدعوا بدلاً منها أزمة أخرى، فخلال تعليقها على هزيمة الغرب في أفغانستان قالت صحيفة «الأوبزرفر» البريطانية: «إنه أسوأ إذلال للسياسة الخارجية البريطانية منذ أزمة السويس»، وكانت صحيفة «التايمز» البريطانية قد وصفت من قبل أزمة خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي بأنها «أسوأ أزمة منذ حرب السويس»، ويبدو أن الصحافة البريطانية والساسة البريطانيين قد وضعوا أزمة السويس معياراً لكوارثهم الكبرى أو أن أزمة السويس قد أصابهم بمتلازمة لم يشفوا منها حتى الآن، فلماذا أزمة السويس بالتحديد التي أصبحت ترمومتر الكوارث لديهم (سويسوميتر)؟

إن أزمة السويس ليست مجرد هزيمة لمخطط استعماري ضد الشعوب المقهورة، وإنما كانت الأمل الذي مُنح لتلك الشعوب كي تنتفض ليس استعادة لثرواتها ونيل حريتها فحسب، بل مناطق المستعمر ومعاملته بنديّة لم يعتدّ عليها، وتصدير تلك الحالة لباقي شعوب العالم حتى شعر المستعمر أن عهد الاحتلال قد ولى إلى الأبد وأن مقولة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر: «على المستعمر أن يحمل عصاه ويرحل» هي الأقرب للتطبيق وأنها ليست مجرد أمنية بل هدف خطت مصر أولى خطواته لتتبعها باقي الدول التواقّة للحرية. لذا ستظلّ السويس حاضرةً والخصومة مع زعيم قصتها قائمةً ولن تنتهي كي لا يأتي من يسعى لتكرار ذلك السيناريو ويتحدى الغرب ويناطحه، هؤلاء هم الخصوم الحقيقيون للغرب وليس رجال طابان أو دا عش، فهم في النهاية صنيعتهم والخلاف بينهم مرحلي ومؤهل للتجاوز والعودة للتخالف في أماكن أخرى، فالغرب الذي يحارب «المتطرفين» في أفغانستان هو ذاته الذي يقدم لهم أكبر دعم في سورية والعراق وليبيا، على الجانب الآخر فخلافهم مع المعادين للإمبريالية هو خلافٌ جذريّ غير قابل لأي التقاء في أية نقطة أو قضية أو مكان، فالغرب يعرف عدوه جيداً ولا يتوانى أو يتهاون في خصومته ومعاداته.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد



إن الخلاف بين الإمبريالية ومناهضيها (القوميون العرب في مقدمتهم) هو خلاف جذري لا التقاء فيه، أما فيما عدا ذلك فهناك مجال للمناورة والتحالف والخلاف المرحلي، فنرى الغرب يحارب المتطرفين مرة ويحالفهم مرة أخرى وهكذا وفقاً لما تقتضيه المصلحة، كذلك أنصار الإسلام السياسي الذين يرفعون شعارات دينية ويتباكون على معاداة الغرب للإسلام وهم في الحقيقة الجيش الذي يحارب نيابة عنه في كل معاركه. حتى في معركته لتشويه الرموز المعادية للإمبريالية يأتي هؤلاء في مقدمة المهاجمين وقد لعبوا دوراً كبيراً في تزييف صورة تلك الرموز لدى الأجيال الجديدة من الشباب، حتى أن أزمة السويس التي ما تزال تعتبرها بريطانيا الأزمة الأكبر والهزيمة الأكثر إذلالاً لها، وهو ما يمثل مصدراً للفخر لنا وشفحة مضيئة في تاريخنا ونوراً نهدي به في عز أزماننا، قد تحولت لدى هؤلاء الشباب من نصر عظيم إلى هزيمة كبرى يتباكون عليها.. وبدلاً من الفخر بتاريخهم، أصبحوا يهيلون التراب عليه حتى يتسلل إلى أذهانهم أن معاداة الغرب مصيرها الهزيمة وأنها لم تجلب سوى الخراب. نعم أزمة السويس ما تزال عالقة في

أذهان الغرب ليس للتباكي على الماضي بل لمنع تكراره، وحين تنتصر المقاومة في معاركها ضده يشحن كل طاقته ويستدعي جنود الاحتياط الذين صنعهم بيديه من أعداء العروبة ومنتسبي الإسلام السياسي لمواجهة خصومه، ولكن المقاومة له بالمرصاد وتثبت في كل مرة بأنها جدوى مستمرة.

في الوظيفة الجغرافية-السياسية للأيديولوجيا: وعي الضرورة عربياً

إبراهيم علوش

أولاً: بين الأيديولوجيا والعلم

يحتاج استجلاء العروة الوثقى ما بين "الأيديولوجيا" من جهة، و"الجغرافيا السياسية" من جهة أخرى، إلى الاستهلال بتعريف كل من المفهومين بدلالاتهما المعرفية والتطبيقية، إذ أن عملية استكشاف الروابط الضرورية بينهما قد تنكسر وتتشعب ضوئياً في ضباب الالتباس المتراكم حول كل من المصطلحين في استهلاكهما اليومي في الأعمدة القصيرة وثنائي البرامج الحوارية.

كلما ذهبنا من حيز العلوم الطبيعية إلى حيز العلوم الاجتماعية إلى حيز الفكر، تتكاثر التعاريف المرتبطة بأي مفهوم أو مصطلح متداول في مثل ذلك الحيز، ومن ذلك تعاريف مصطلحي "الأيديولوجيا" و"الجغرافيا السياسية" بالطبع، غير أن وفرة تعاريفهما (وغموضها وتضاربها أحياناً) تنحو في نهايتها نحو قواسم مشتركة ذات معالم محددة لحسن الحظ.

فما هي الأيديولوجيا؟

إذا أردنا تعريف مصطلح "الأيديولوجيا" ideology بأبسط تعابير ممكنة لقلنا إن الأيديولوجيا هي منظومة مترابطة من المفاهيم والقيم. أما منظومة المفاهيم، فتساعد علي فهم العالم أو جزء منه، الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية مثلاً، فالأيديولوجيا هنا هي ببساطة نظرة فكرية منسجمة داخلياً إلى العالم.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد



أما منظومة القيم، فتساعد على تحديد موقف أو طريقة منهجية (أي غير عشوائية) في التعاطي مع تلك الظواهر موضع الاهتمام. أما مدى الترابط بين المفاهيم التي تقوم عليها أيديولوجيا ما، فيحدد مدى تماسكها المنطقي والمعرفي، وعلى الضد، يقابل مثل ذلك التماسك الأيديولوجي التلفيق أو التجميع العشوائي لشتات الأفكار المتناقضة أحياناً أو غياب المنهج الفكري كلياً أو جزئياً.

ما نزال إلى هنا في الحيز غير الخلفي في تعريف الأيديولوجيا. لكن لمن يحب معرفة الدلالة اللفظية للمصطلح، فهو يتألف من مقطعين إغريقيين: إيديو، أي "فكرة"، و"لوجيا"، أي منهج أو علم دراسة شيء ما، ومنها كلمة logic أو علم دراسة المنطق الصرف، لنبني على مثل ذلك التركيب سلسلة مفاهيم على غرار بيولوجيا (علم دراسة الأحياء) أو سوسبيولوجيا (علم دراسة المجتمع) أو إيستيمولوجيا (علم دراسة المعرفة) إلخ... مع العلم أنه ليس من الضروري طبعاً أن ينتهي تعريف كل علم أو فرع من فروع المعرفة بـ"لوجيا"، فنحن نقول رياضيات، فيزياء، اقتصاد، إلخ... أي Mathematics, Physics, Economics, Ethics, Symbiotics, Robotics, etc وهي طريقة أخرى في توليد تسميات فروع المعرفة المختلفة تنتهي كلها بـ"ics"، كما نلاحظ، أي المتصلة بالموضوع الفلاني، وثمة طرق غيرها، ولكن علم دراسة أصول الكلمات أو الـetymology ليس موضوعنا هنا.

الأيديولوجيا إذن، كمنظومة معرفية وقيمية، هي بأوسع معانيها طريقة منهجية في النظر للإنسان والعالم بشقيه الطبيعي والاجتماعي. ولا تمتلك كل أيديولوجيا مثل هذا الموشور الواسع للنظر للحياة من كافة جوانبها بالضرورة، فهناك أيديولوجيات أوسع أو أضيق نطاقاً. فالأديان عموماً تقوم على بُنى أيديولوجية حول الإنسان والعالم والحياة وعالم الغيب. والماركسية بمختلف تلاوينها تقوم على بنى أيديولوجية شاملة تتعلق بالطبيعة والكون والمجتمع مع تركيز أكبر على الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية. أما الليبرالية الجديدة مثلاً فمَنظورها اقتصادي وسياسي وثقافي فحسب.

تتخذ بعض الأيديولوجيات شكل فلسفة سياسية أساساً، كما هي حال الأيديولوجيات القومية، بما يتركها عرضةً للتأثر بتيارات أيديولوجية أخرى في حيز الفكر الاقتصادي والاجتماعي وأحياناً الديني لتنشأ توليفات أيديولوجية قومية يسارية أو قومية دينية. ويمكن أن نقيم مقارنة مماثلة للاجتهادات الإسلامية في مجال الاقتصاد والفكر السياسي التي تنتهي إلى توليفات "إسلامية يسارية" أو "إسلامية ليبرالية". فللماركسية نظرية في القومية مثلاً، يمكن نقاشها وقبولها أو رفضها أو تطويرها، ولكن لا توجد (بعد) نظرية قومية متكاملة في الاقتصاد السياسي، كما لا توجد نظرية ليبرالية جديدة حول العلاقة بين المادة والوعي، سوى أن القومي يتناول الاقتصاد من منظور قومي، أي من منظور الاستقلال والتبعية وتجبير الموارد القومية لمصلحة الأمة، والليبرالي الجديد يتعامل مع التدين بالمقابل كشأنٍ فردي لا يدخل ضمن نطاق اهتمامه معرفياً وقيماً إلا بمقدار تأثيره على حرية السوق والرأسمال وحرية الفرد/ الإنسان المنبث عن أي جذر قومي أو حضاري.

سبق أن كُتِب الكثير عن وظيفة الأيديولوجيا كأداة هيمنة اجتماعية، ولعل المثال الأبرز هنا هو أنطونيو غرامشي وأطروحاته حول الهيمنة الثقافية (انظر طلقة تنوير العدد 1 والعدد 61)، وهي أطروحات انبسط تأثيرها بعيداً عن الدوائر الماركسية التي انبثقت منها. ونسوق مثال أطروحة غرامشي عن الهيمنة الثقافية هنا لنبرز وظيفتين للأيديولوجيا:



لائحة القومى العربى

العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

أولاً، وظيفة تعبوية، سياسية-اجتماعية بطبيعتها، بصفتها عقيدة،
ثانياً، وظيفة معرفية، تهدف إلى فهم العالم وتغييره، بصفتها فكراً.

ولا يمكن فصل الوظيفتين عن بعضهما. فالأيديولوجيا تنتج معرفة، وتنتج اصطفاً في أن معاً. إنتاجها للمعرفة مستقياً من خلال قراءة ظواهر الواقع من عدسة مفاهيمها لتكرس بذلك "الحقيقة" التي تقود إليها تلك المفاهيم، أي إلى العقيدة. لكنها عندما تفعل ذلك تجد نفسها مضطرة، بمقدار ما تسعى لتثبيت مصداقيتها المنطقية والمعرفية، ولتفرض فكرها كفكر إنساني محايد، يملأ الحياة طبيعياً كالماء والهواء والنار والتراب، إلى اجتراح أدوات تحليلية جديدة مثل مفهوم "الهيمنة الثقافية" عند غرامشي الذي وجد صدقاً كبيراً لدى غير الماركسيين أيضاً لأنه عالج بعمق ظاهرة تهتم كل إنسان مفكر بشكل يمكن أن يفسر بها الكثير من الظواهر الاجتماعية من حوله (1). وإذا كان ماركس وإنجلز قد صبا جام غضبهما على "الأيديولوجيا" كأداة هيمنة وتضليل برجوازية تخفي علاقات الإنتاج من خلف قناعها، فإنهما انتھيا إلى إنتاج أيديولوجيا ماركسية نقضية فعلياً، معرفياً وقيماً، وعلى هذا استند غرامشي أصلاً في طرح مفهوم الهيمنة أو الحرب الثقافية.

مثال آخر من الطرف النقيض: النماذج الرياضية المعقدة التي ينسجها الاقتصاديون النيوكلاسيكيون دفاعاً عن الأيديولوجيا الليبرالية الجديدة في علم الاقتصاد هي أيديولوجيا منحازة عقائدياً بالضرورة بأدوات تحليلية رياضية متقدمة يسعون من خلالها أن يفرضوا أيديولوجيتهم باعتبارها "أمراً طبيعياً" أو "سنة الكون"، ولكن تلك الأدوات التحليلية بذاتها جديرة بالامتلاك، كتقدم علمي عام يمكن توظيفه ضد الليبرالية الجديدة التي حاولت أن تفرض بها منظومتها القيمية بأدوات رياضية تمثل إسهاماً معرفياً جديداً لأيديولوجيا منحازة حتى النخاع.

وعلى كل حال، وكما يقول سمير أمين في "نقد روح العصر" (1998)، فإن مذاهب الفكر الاجتماعي يرى أمين أن تعبير الفكر الاجتماعي أصوب من تعبير العلوم الاجتماعية) لا تفرض وجودها بقوة حجتها فحسب، بل برجحان ميزان القوى الاجتماعي لمصلحة هذه القوة على تلك، لتفرض الفكر الذي يعبر عنها فكراً مهيمناً.

ونختلف مع سمير أمين في أن مثل هذا التحيز الأيديولوجي ينطبق على الفكر/ العلوم الاجتماعية دون الطبيعية، فالنظرية التطورية في علم الأحياء مثلاً موضع صراع حاد مشحون أيديولوجياً مع المتدينين في ذلك الحقل. ومسألة توجيه البحث والتطوير R&D لتحقيق أجندة أقصى الأرباح للشركات الكبرى متعددة الحدود، في الصناعات الدوائية والعسكرية وغيرها، بدلاً من حل المشاكل المستعصية للبشرية، هي مسألة ملتبهة سياسياً. كذلك يمكن إلقاء نظرة هنا على كتاب د. أشرف البيومي "العلم كأداة للهيمنة الأجنبية، مشروع زويل نموذجاً" (2013).

وقد جاء كتاب توماس كون Thomas Kuhn "بنية الثورات العلمية" (1962) كنقطة تحول في تاريخ فلسفة العلوم لتؤكد على أن التطور العلمي لا يحدث فقط على شكل تراكمات خطية، بل كإنقلابات في النماذج والرؤى الكلية، وهي إنقلابات كثيراً ما تتوافق مع تحولات سياسية واجتماعية كبرى كما نرى من تاريخ العلم والفكر والثقافة. ويمكن أن تقبع رؤيا ما دفينه الكتب قرونًا حتى تأتي ظروف وقوى اجتماعية صاحبة مصلحة بنبشها وإعلاء رايته، ومن الأمثلة على ذلك مثلاً سلسلة المقالات التي نشرتها صحيفة "وول ستريت جورنال الأمريكية" مثلاً في التسعينيات عن الفيلسوف إيمانويل كانت Kant في ظل صعود العولمة آنذاك مع تركيز خاص على فكرة "السياسة المعولمة والقانون الكوزموبوليتيكي" عنده لأن ذلك فكر معولم يناسب مرحلة تمدد الشركات متعددة الحدود.

بجميع الأحوال، يصعب الحديث عن "فكر صرف" أو علم غير منحاز أيديولوجياً، إنما قد يخفي انحيازه في أي مرحلة من المراحل (مران: 1) مقدرته على تطوير مفاهيمه وأدواته التحليلية بما يساعده على مواكبة الواقع وتفسير أكبر رقعة منه، (2) مقدرة القوى المهيمنة على وسائل إنتاج العلم والثقافة على فرض رؤيتها العلمية المؤدلجة كأمر واقع من خلال أدوات الهيمنة الثقافية، أو على الطرف النقيض، نشوء قوى مقاومة ثقافية تفرض رؤى بديلة لتلك المهيمنة.

قلما يوجد علم غير مؤدلج إذن، أو خالي من المدارس المتعارضة، أو غير ناتج عن سياق اجتماعي-سياسي مُستقطب (تطوير علوم الفضاء خلال الحرب الباردة نموذجاً)، إنما توجد أيديولوجيات ديناميكية قادرة على إنتاج معرفة متجددة وأخرى باتت عقيمة ولم تعد قادرة على العطاء والتجديد فأصبحت لغواً وإنشاء.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد



حتى العلوم الأساسية التي وضعتها على ضفاف الفرات والنيل قبل آلاف السنين طبقة من الكهنة والعلماء المتخصصين إنما تمت صياغتها وبلورتها في كنف منظومة اقتصادية-اجتماعية محددة ذات مصلحة بتطويرها، منظومة الدول المركزية النهريّة التي أنفقت على تلك الشريحة ورعتها لتعيد إنتاج مشروعيتها الأيديولوجية.

أما "البراغماتي" الذي ينادي بسقوط الأيديولوجيا فيحمل أيديولوجيا براغماتية، والبراغماتية فلسفة نفعية متطرفة في النهاية لها رموزها مثل جون دووي Dewey، والليبرالي الذي يحيل كل

شيء لمرجعية الفرد يحمل بدوره أيديولوجيا فردية متطرفة. إنما قد تجعل هيمنته السياسية هيمنته الفكرية أمراً "طبيعياً"، ولكن في مرحلة تاريخية ما، كان لا بد له من يضيف إسهاماً علمياً أو معرفياً ما يمكن البناء عليه كإرث بشري ليبرر وجوده كأيديولوجيا، كسلطة أو كثورة (على الإقطاع). والبراغماتي والليبرالي على كل حال هو آخر من يحق له أن يقدم نفسه كـ"محايد علمياً" مقابل خصومه "الأيديولوجيين" لأنه هو بالذات أكثر خبثاً في تورية انحياز الأيديولوجي كأداة اختراق للصف الآخر أيديولوجياً حتى وهو يزعم أنه يقدم "خطاباً"، لا أيديولوجياً.

ثانياً: في الأيديولوجيا والجغرافيا السياسية

سبقت الإشارة إلى أن وظيفة الأيديولوجيا كأداة هيمنة طبقية (داخلية) أو إمبريالية (خارجية) توجد أدبيات كثيرة تعالجها وتتوسع فيها. إنما تبقى الحلقة المفقودة في تحاليل مناهضي الهيمنة ممن يغرقون في الشأن الاقتصادي السياسي فحسب، أو الديني فحسب، هي وظيفة الأيديولوجيا كأداة هيمنة من منظور الجغرافيا السياسية، أي عبر الفضاءات السياسية الملموسة. وهي حلقة مفقودة كبيرة إلى درجة خلقت حيزاً لمناهج تحليل اجتماعي جديدة تزوج بين الاقتصاد السياسي من جهة، والجغرافيا السياسية من جهة أخرى، ومنها مثلاً مقاربة إيمانويل والرشتاين Wallerstein حول الأنظمة العالمية World-systems theory، ومنها مدرسة الاقتصاد السياسي الجغرافي Geographical Political Economy، التي تتناول الجغرافيا الاقتصادية من منظور الاقتصاد السياسي.

فما هي الجغرافيا السياسية؟

إذا أردنا تعريف الجغرافيا السياسية بأبسط التعابير لقلنا إنها الشروط التي تفرضها الجغرافيا على الوحدات السياسية، سواء عرّفنا تلك الوحدات السياسية كدولٍ حصرياً أم كتكتلات من الدول (الاتحاد الأوروبي نموذجاً) أم كإمارة أم حتى إقطاعية. لعل أبرز مثال هنا هو أثر حجم وحدة سياسية ما على ميزان القوى بينها وبين الوحدات السياسية الأخرى في محيطها الإقليمي، وكيف ينتج ذلك أنماطاً من التحالف والصراع. ففي وعاء الأسماك ثمة أسماك قرش و ثمة سردين صغير، والوعاء يحكمه السمك الكبير لا الصغير. ففي وعاء الخليج العربي مثلاً تمثل الدولة السعودية اليوم السمكة الكبيرة من حيث الحجم الجغرافي والسكاني، ولا يشكل نداءً محتملاً لها إلا اليمن جنوب الجزيرة العربية، ومثل هذا الصراع الكامن يفسر بعضاً من الخلفية الجغرافية السياسية لحروب الردة بعد وفاة الرسول محمد (ص)، لا سيما في اليمن وحضرموت وعمان، ولولا الأثر العقائدي للأيديولوجيا الإسلامية لما أمكن توحيد الجزيرة العربية بعد تلك الحروب.

لكن مسألة "الحجم" لا تحسم بمثل هذه البساطة. فالحجم يعني المساحة الجغرافية، وبالتالي عدد السكان، لكن الحجم في زماننا المعاصر يعني أيضاً حجم الاقتصاد، أي الناتج المحلي الإجمالي، ومستوى تقدمه علمياً وتكنولوجياً.



العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

كما أن الحجم يختلف أثره إن كنا نتحدث عن مساحات جرداء مفتقرة للمياه مقابل مساحات خصبة يمكن أن تحمل عدداً أكبر من السكان، وبالتالي أن تحمل جيشاً أكبر مما يؤثر في ميزان القوى العسكري.

وليس الحجم بالطبع هو وحده المهم، فهناك مسألة الموقع وجغرافيته، وطبيعة التضاريس. فليس هناك من شك بأن وعورة تضاريس أفغانستان، أو اليمن، جعلت منها هدفاً صعباً للغزاة عبر التاريخ. أما الموقع فقد يكون أكثر أهمية من المساحة أحياناً. فكون بريطانيا جزيرة أو مجموعة جزر جعلها أكثر حصانة من الغزو الخارجي، فيما حفل تاريخ روسيا، المفتحة برياً على مساحات مترامية من كل حدب وصوب، بإرثٍ من الغزوات المتتابعة التي لم تترك لها فسحة للتنفس، وبالتالي لعب موقع كلٍ منهما دوراً حاسماً في تشكيل الهوية القومية لكلٍ من الروس والبريطانيين، فالروس تعلموا من تجربتهم التاريخية أن بقاءهم كامة يرتبط بوجود دولة مركزية قوية لا بد من أن يخضعوا لها، فيما امتلك البريطانيون رفاهية التمسك بحرياتهم الفردية ما عدا في وقت الأزمات: ثمة صلة عضوية بين الأيديولوجيا والجغرافيا السياسية.

الموقع، طبعاً، هو مأساة فلسطين الواقعة بين الجناح الآسيوي والجناح الإفريقي للأمة العربية، وهو ما جعلها هدفاً استعمارياً لتأسيس حاجز بشري غريب يفصلها عن بعضهما البعض بتعبير بالمرستون هو دولة العدو. وموقع سورية تحت شبه هضبة الأناضول الأكبر حجماً بكثير، في زمن الحثيين ثم البيزنطيين ثم العثمانيين، كان وما يزال يعني أن صيانة استقلال سورية لا يمكن أن يتحقق إلا باستدعاء الاحتياطي الاستراتيجي العربي الكبير من عمق الجزيرة العربية ووادي النيل وأبعد، وهو ما جعل بلاد الشام تاريخياً مصنع الأيديولوجيا القومية العربية الأكبر في الوطن العربي، إذا حسبنا النسبة العددية للمفكرين القوميين العرب المتحدرين من بلاد الشام من مجموع المفكرين القوميين في كل الوطن العربي من المحيط إلى الخليج عبر التاريخ الحديث مثلاً. ولهذا فإن العبث بالهوية القومية العربية لبلاد الشام تحديداً يشكل خطراً مميتاً على الأمن القومي العربي لا على استقلال سورية فحسب، سواء جاء ذلك العبث من التيار الإسلامي الشعبي أو من التيار الليبرالي المعولم، لأنه يفتح باب الهشاشة الداخلية أيديولوجياً، قبيل الغزو، من شبه هضبة الأناضول مباشرة، ومثل هذا الخطر المائل مباشرةً هنا والآن هو أحد الأسباب الرئيسية التي تدعو كل قومي عربي شريف لدعم حكم الرئيس بشار الأسد في سورية كحصن قومي في مواجهة التمدد العثماني.

الجغرافيا السياسية تعني أن أي حاكم لمصر والسودان، منذ الفراعنة، يجب أن يدرك أن مفتاح النيل يقبع في الحبشة، وأن أي حاكم في العراق وبلاد الشام، منذ الأكاديين، يجب أن يدرك أن مفتاح دجلة والفرات يقبع في شبه هضبة الأناضول، وبالتالي فإن طبيعة النظامين الحاكمين في الحبشة والأناضول، وما إذا كانا صديقين أم معاديين، هي مسألة أمن قومي عربي ذات أولوية عالية، لا مزاح فيها. وهو ما يدخلنا في تعريف آخر يتصل اتصالاً مباشراً بعلم الجغرافيا السياسية، وهو "الجيوپوليتيك"، والجيوپوليتيك هي طريقة إدارة المخاطر والتحديات الجغرافية السياسية، فهي استراتيجية أمن قومي خاضعة للاجتهاد. زنوبيا مثلاً احتلت منابع دجلة والفرات، وإبراهيم محمد علي باشا شرع باحتلال منابع النيل، ثم انشغل عنها بحروب أخرى، عبد الناصر احتوى القارة الإفريقية بالقوة الناعمة وبدعم حركات التحرر فيها، وبتعزيز قوة مصر الداخلية والخارجية، فيما شكل تأسيس سد النهضة دليلاً على ثغرة كبرى في استراتيجية الأمن القومي المصرية ستدفع ثمنها الأجيال المقبلة غالياً.

تقوم استراتيجية الأمن القومي "الإسرائيلي" الجيوپوليتيكية بالمقابل، كما نستدل من وثيقة "كيفونيم" ووثيقة "كارينجا" ومن أعمال برنار لويس، وكل ما يفعله الكيان الصهيوني في بلادنا، على تفكيك المحيط العربي على خطوط طائفية وعرقية وقبيلية وجهوية إلخ... ولا عصمة للأمة العربية من مثل هذا المصير القاتم إلا بتأجيل الحس القومي، انطلاقاً من العروبة الحضارية المستوعبة للتعدد الطائفي والعنقي والقبلي والجهوي، وكل شيء آخر يفرقنا إلى شذرات.

الحقيقة المرة هي أن الأمن القومي العربي لن يتحقق على المدى البعيد إلا بتفكيك تركيا والحبشة، بكل طريقة ممكنة، وهي وجهة نظر واقعية تنطلق من كوننا أمة عربية واحدة مفككة اصطناعياً، مما يتيح لكل طائفة سبيل العبث فينا، فيما هم أمم متعددة توحدتهما دولتان مركزيتان مصطنعتان، وتنقص أمة العرب الدولة المركزية الواحدة الطبيعية، كتعبير قانوني عن حقيقة وجود أمتنا، وهو مشروع النهوض القومي الوحيد.



إن مشكلة الأيديولوجيا الدينية أو الماركسية أو الليبرالية أنها ما تزال تقفز بشكلٍ تعسفي من فوق حقيقة الوجود القومي الذي يفرض ذاته عبر الفضاء الجغرافي، وبالتالي تهمش الأيديولوجيا القومية الناتجة عن ذلك الوجود المادي موضوعياً كما تحتضن كل تربة ومناخ مجموعة النباتات الخاصة بها. وكل تلك الأيديولوجيات الما-فوق-قومية في هذا سواسية سواء باسم أمة المؤمنين، أم باسم الطبقة الاجتماعية، أم باسم "الإنسان"، ولن نتوقف عند أدعاء الأيديولوجيا القُطرية، المأزومة بحد ذاتها، لأن البنية القُطرية المهترئة التي تستند إليها هي مصدر كل أزمات المواطن العربي، من استباحة الأمن القومي إلى المعاناة المعيشية اليومية. لكن اللافت هو أن معظم هؤلاء، إلا من رحم ربي، يشتركون في العداء للقومية العربية بالذات أكثر من أي نزوع قومي آخر.

تفرض حقيقة الوجود القومي ذاتها حتى على أكثر الأيديولوجيات تماسكاً لتلونها بلونها عندما لا تتخذ شكل أيديولوجيا قومية صريحة. فعندما شعر الخزر بوطأة سيطرة الأمويين والبيزنطيين في القرن الثامن الميلادي وأرادوا الحفاظ على استقلالهم القومي، تبنا اليهودية، ومن هنا نشأ اليهود الأشكناز، ذوو الأصول التركية. كذلك كان الدافع القومي الفارسي للحفاظ على إيران في مواجهة التمدد العثماني في القرن السادس والسابع عشر الميلاديين وراء تبني الصفويين للمذهب الشيعي، وكان التشيع قبل ذلك عربياً بالكامل. فإذا كانت الأيديولوجيا ذات جذور محلية، فإن تبنيها يحدث أثراً جغرافياً سياسياً بالضرورة، أثراً قومياً بالتحديد. وهذا لا ينطبق على الأديان فحسب، بل على كل أيديولوجيا، لأنها لا تعيش في فراغ بل في حيزٍ مكاني، أي في حيزٍ قومي.

الجيوبوليتيك يحدد طبيعة الخطاب السياسي في كثير من الأحيان. وكما كتبت في مقالة بعنوان "حزب الله وخطابه عربياً" (3 حزيران/ يونيو 2015): "اليافطة العقائدية بالمناسبة قد تفرضها حقائق الجغرافيا السياسية. فحاجة روسيا التاريخية مثلاً لتأمين سيطرتها على محيطي أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، اللذين هوجمت عبرهما مراراً، يتطلب بالضرورة خطاباً أممياً عبّر عنه الاتحاد السوفييتي السابق. وحاجة يوغوسلافيا السابقة للخروج من هيمنة موسكو ضمن معسكر اليسار العالمي تطلب بالضرورة خطاباً مناهضاً للستالينية عند يوغوسلافيا، وحاجة أنور خوجة في ألبانيا لدرء الهيمنة المحتملة ليوغوسلافيا السابقة (المجاورة) تطلب في ألبانيا السابقة خطاباً ستالينياً متشدداً. كذلك احتاجت الصين كقطب كبير في المعسكر الاشتراكي لخطاب ماوي متميز. ومصر لا تستطيع أن تلعب دوراً عربياً بدون خطاب قومي عربي. وحاجة الولايات المتحدة وحلف الناتو اليوم للتدخل في أي مكان في العالم، من فوق رأس الدول الوطنية، يتطلب بالضرورة خطاباً "عالمياً" يتمحور حول الديمقراطية وحقوق الإنسان والحيوان والبادنجان، وهكذا...

أما حاجة آل سعود للعب دور إقليمي في مواجهة جمال عبد الناصر وحركات التحرر الوطني العربية في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، فتطلبت تأجيج الخطاب الديني في مواجهة "الإلحاد" المزعوم، وهو الخطاب نفسه الذي اتخذ نكهةً تكفيرية طائفية صارخة فيما بعد عندما أصبح المطلوب مواجهة إيران وتفكيك قاعدة تأييد معسكر المقاومة في المنطقة، وعلى رأسه حزب الله بما يمثله من رأس حربة وقوة وازنة في مواجهة المشروع الإمبريالي-الصهيوني-الرجعي العربي".

باختصار، الجغرافيا السياسية المستندة إلى حقيقة الوجود القومي هي الأساس في البرنامج السياسي. فإن أردت أن تكون إسلامياً، كن وحدوياً عربياً. وإن أردت أن تكون ماركسياً، كن وحدوياً، وإن أردت أن تكون قومياً عربياً فترفع عن الترهات القُطرية، وكن وحدوياً حقاً لا بالشعار فحسب، لأن مرجعيتك هي الأمة العربية لا حدود التقسيم الاستعماري الثقافية.



العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

ولنا أن نتصور جبهة قومية متحدة تضم إسلاميين ويساريين وقوميين عرباً يجتمعون على أساس برنامج وحدوي. أما صراعات القوميين العرب فأساسها رواسب الوعي القطري، الصراع المصري-العراقي مثلاً على قيادة الأمة العربية، أو الصراع العراقي-السوري منذ الأثوريين والأراميين، أو الصراع بين نجد والحجاز من جهة، واليمن من جهة أخرى، منذ ما قبل حروب الردة، أي إلى الجغرافيا السياسية، وتجاوزها يتطلب وعياً وحساً قوميين ناقضين للهوية القطرية من الطراز الرفيع كمقياس لمدى قوميتك. الوحدة والتحرير والنهضة هي الأهداف القومية الكبرى من منظور جغرافي سياسي لأنها مصلحة الأمة، وكيف تعقلنها إسلامياً أو يسارياً أو قومياً هو أمر يعود لك.

الإنسان العربي في خضم تنازع الأولويات

بشار شخاترة

كانت لافتة حالة الاستنفار العشائري والقبلي في مدينة الخليل الفلسطينية المحتلة في شهر تموز الماضي على خلفية مقتل أحد الأشخاص. المظاهر المسلحة ونوعية الأسلحة التي كانت بيد الحشود المتوترة وكذلك أعمال العنف جميعها تثير التساؤل ومحاولة الفهم عما يقف في الخلفية اللاواعية أولاً والواعية ثانياً لشعب يقع تحت الاحتلال، ما هي أولويات هذا الشعب؟ لا سيما أن هناك عريضة صهيونية واحتلالاً جاثماً وهناك شهداء يرتقون نتيجة غطرسة الاحتلال ولا ترتفع تلك البنادق ولا تتعالى تلك الصيحات في مواجهة العدو، هذه التساؤلات قابلة للتعميم على كل إنسان عربي يعيش على مساحة هذا الوطن الممتد من المحيط إلى الخليج.

بالتأكيد لا يجوز توظيف المثال الذي ذكرناه هنا للنيل من بطولة وتضحيات الشعب العربي الفلسطيني، لكنه نموذج موجود ويتخذ أشكالاً وصوراً متعددة، من التساؤلات التي ترشدنا أيضاً إلى فهم أعمق لماذا يقف الكثير من اللبنانيين خلف زعماء طوائفهم مع علمهم الأكيد بفسادهم ودورهم في تعمق الأزمة الراهنة فيما يتعلق بالوقود والكهرباء؟! ولماذا يصرون على الدفاع عن الطائفية؟ مع علمهم أن النظام الطائفي يكبد لبنان أثماً باهظة هم بغنى عنها، كما يمكننا أن نتوسع بالتعميم بالسؤال لماذا لا يكسر العرب حواجز التجزئة ليستفيدوا من منافع الوحدة؟ ولو بالمنطق النفعي البحت هناك منفعة مباشرة ومكاسب للوحدة، ومع هذا يتغنى البعض بالأقطار والأقاليم العربية وبفادتهم مع علمهم أنهم عائق أمام مشروع الوحدة العربية وأنهم يحرمونهم من مكاسبها، مع علمنا أن المواطنين العرب لا يرفلون بنعيم الحياة والرفاه في أقطارهم، طبعاً باستثناء دول الخليج العربي، وحتى هؤلاء يعانون من أزمة بنوية وجودية مرتبطة بالأمن وبخطر تغيير هوية أقطارهم ذاتها.

يلاحظ أن هناك مزيجاً من قلة الوعي و/أو زيفه مع إخفاق واضح في مسألة ترتيب الأولويات، ولأن الأمر كذلك لا يرى الكثيرون أن مسألة التحرر من الهيمنة وإسقاط التبعية للأجنبي أو مسألة تحرير كامل التراب العربي أو مسألة الوحدة العربية، لا يرونها مسائل حيوية بل ومصيرية وأنها يجب أن تكون أولوية لديهم مع أنهم ليسوا ضدها، وفي أغلب الأحيان يؤيدونها ويعلمون أهميتها، ولكن لم ترتق إلى أن تكون الأولوية الأولى في سلم أولوياتهم، من هنا يظهر مدى التقدم في مشروع ما أو فكرة أو قضية بقدر ترتيبها والعمل من أجلها، فبالقدر الذي تتحول فيه فكرة ما إلى أولوية لمجتمع ما، وترتفع إلى مرتبة أن تصبح قضية تبدأ النتائج بالتحقق تبعاً بمعنى أنها تصبح قضية نضالية لذلك المجتمع أو الشعب، فالجزائر مثلاً، ما أنجزته في سنوات الاحتلال الثماني الأخيرة من عمر الاحتلال الفرنسي -الذي طال على ما يزيد عن مئة وثلاثين عاماً - يتجاوز طيلة عهد الاستعمار الفرنسي وذلك عندما نضجت ظروف الشعب العربي الجزائري النضالية فأصبح طرد المحتل والتحرر منه قضية نضالية وأولوية قصوى للشعب مع التأكيد على الظرف العربي القومي بقيادة عبد الناصر.

مسألة ترتيب الأولوية القومية كانت في مرحلة المد القومي مثار جدل ونقاش أفرزت أحياناً خلافات وأحياناً صراعات وأحياناً انقسامات وتشققات في جدار العمل القومي والنضال الوحدوي، لكن في ذلك الزمان العربي كان يختلف القوميون حول أولوية الوحدة على التحرير على بناء الاشتراكية لكن لم يكن قومياً من يرفض أو يلغي أي واحدة من تلك الأولويات، ولم يكن يسمح الوعي الجمعي العربي بالانتقاص من ضرورة كل أولوية منها قومياً، بعكس الواقع الراهن الذي اجتاحت أولويات أفضت إلى تراجع اهتمام الإنسان العربي بتقديم تلك الأولويات على الوحدة والحرية والاشتراكية،



لائحة القومي العربي

العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد



وقد تراجعت تلك الأولويات المصيرية مع أن الحاجة إليها أصبحت أشد، فكيف تطور المجتمع العربي بالمقلوب وكيف أصبحت الطائفة أو القبيلة أو المذهب أو حتى الدين هي سقف الإنسان العربي وموجه السلوك لديه؟

توجيه النمط الاستهلاكي للإنسان العربي وإغراقه في عادات سلوكية طغت على تفكيره بما يشبه الإغراق أو الاستحواذ على مدخلاته المعرفية بحيث تتكيف رداً فعله السلوكية في سياق الطغيان المعرفي الموجه استهلاكياً، بحيث بات النمط السلوكي ليس فقط استهلاكياً من ناحية سلعية وخدمائية، بل تعداه إلى استهلاك الخبر وتسليعه بطريقة يصبح الإنسان معها مستهلكاً للأخبار بذات الطريقة التي يستهلك فيها السلعة وينتظر الخبر التالي، هذا النمط السلوكي خلق فجوة كبيرة بين

الإنسان وبين الخبر وبين الواقع وأصبحت رداً فعله حيادية، لهذا ونحن في مواجهة الإنسان المستهلك للخبر كما يستهلك السلع والخدمات فإن الأولويات يعاد ترتيبها وأحياناً بعض المسائل المصيرية تخرج من عداد الأولويات.

تقارير منظمة اليونسكو التي تطرح التحديات والأولويات للقرن الحالي تنحصر في أربع أولويات وهي التعليم والبحث العلمي والاقتصاد وحقوق الإنسان، وهي أولويات ذات أهمية لكنها تتطلب مجتمعا أنجز أولوياته الأساسية بوحده القومية وبسط سيادته على كامل جغرافيته القومية ولا يعاني من الهيمنة أو الاحتلال، فالمجتمع العربي يعاني أساساً من التجزئة والهيمنة الأجنبية والاحتلال والتخلف ومفاتيح الحل تبدأ بمواجهة هذه التحديات وجعلها أولويات وعند تجاوز هذه التناقضات الوجودية يصبح البحث في الأولويات التي تتحدث عنها اليونسكو هي التالية في ترتيب المجتمع العربي، على أن ذلك لا يعني أن نتوقف عن تعليم الأبناء أو نقف في مسار البحث العلمي مع العلم أن المساهمة العربية في هذا المجال متواضعة جداً وتكاد لا تذكر، أو الأنازعي الاقتصاد بالنهوض به وتطويره أو ألا نلتف لانتهاك حقوق الإنسان، لكن إذا دققنا في هذه الأولويات التي تتادي بها اليونسكو نجد أنها مشاكل حقيقية وليست أولويات بالنسبة للمجتمع العربي ناشئة عن غياب الأولويات المتمثلة بالتجزئة والاحتلال والهيمنة والتخلف، لهذا إذا أردنا أن نناقش تحديات القرن الحالي فإنها تعود بنا كعرب إلى أساس أولوياتنا والتي لم تتغير من حيث الجوهر وإن طرأ على المجتمع العربي مشاكل مستجدة إلا أنها تبقى نتيجة وليست سبباً.

فمثلاً تتقاذف الفضاء الإعلامي العربي مسائل الديمقراطية وحقوق الإنسان وتصبح أولوية لدى أجيال من الشباب ويتم وعن قصد إغفال حقوق الوطن وحرية وخروجه عن نطاق الهيمنة ويتم إغفال مسألة الاحتلال كما يغفل النظر إلى العجز الاقتصادي أو حتى الفشل لدى الكثير من الدول العربية، ويتم التغافل عن ذلك باسم الفساد وتوجيه الأنظار إلى أن البؤس الاقتصادي العربي عموماً ناشئ عن الفساد وهذا فيه اجتزاء للحقيقة وتغييب ممنهج بقصد تزييف الوعي وحرف الشباب العربي عن الأولوية المتعلقة بأن الفشل الاقتصادي ناشئ عن هزلة الكيانات الاقتصادية العربية بسبب ضالة حجمها أو افتقارها للتنوع والذي يغطي هذه العيوب أو الفجوات الاقتصادية هو الوحدة الاقتصادية العربية والتكامل الاقتصادي الذي ينجم عن اقتصاد عربي واحد.

من هنا نقول إن الواقع العربي له خصوصية ناشئة عن بقاء الأمة العربية في حالة من التجزئة وعدم قدرتها على إنجاز وحدتها القومية والجغرافية وتحرير الأجزاء المحتلة، وهذه الخصوصية تتمثل بكثير من الظواهر التي تطفو على سطح المجتمع العربي وتعمل على ترسيخ حالة التجزئة والهيمنة والاحتلال، ومن هذه الظواهر الكم الهائل من الفضائيات التي تقدم مختلف أشكال المواد الإعلامية التي تتنازع الإنسان العربي، وهي تهدف في أغلبيتها الساحقة إلى تزييف وعيه وتبديل أولوياته، ومن الظواهر التي غزت العقل العربي ظاهرة التدين المتمذهب وهي حالة وإن كانت



لائحة القوم العربي

العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

موجودة من باب التعدد انقلبت إلى حالة من الإلغاء الذي أوصل المجتمع إلى التطرف وإلى انتهاج معايير كرسست أولوية الحلال والحرام والغيبيات على أولوية مقاومة المحتل، وألوية الحفاظ على الإطار الطائفي مثلاً على أولوية كسر الهيمنة الأجنبية. ولأن معيار الأولوية أصبح شخصياً أكثر منه موضوعياً ووطنياً وقومياً، بسبب تحول الإنسان عموماً والعربي خصوصاً إلى نموذج مستهلك ترتبط أحكامه وردات فعله السلوكية بمقدار مساس العالم الخارجي بمصلحته الشخصية، فإن توجيه السلوك بسبب غياب القضية وبالنتيجة غياب الخطة يؤدي إلى صعوبة فهم ردة الفعل على حدث معين، فعلى سبيل المثال لا تثير جرائم الولايات المتحدة بحق أمتنا أي رد فعل ظاهري باستثناء مشاعر الاستنكار والغضب ولا تتم ترجمتها إلى سلوك مقاوم من قبيل مقاطعة منتجاتها على سبيل المثال، لكن الرسومات المسيئة للنبي (ص) تفاعلت معها الغالبية العظمى من العرب بمقاطعة المنتجات الدنماركية والفرنسية، وسؤالنا لماذا لا نقاطع أيضاً البضائع الأمريكية والصهيونية؟ هذا جوابه متعلق بحالة التشتت في تحديد أولويات الإنسان العربي، ولا نقصد إطلاقاً عدم الدفاع عن النبي ولكن ما نقصده أننا نحتاج لذات الحماس في مقاطعة البضائع الأمريكية والصهيونية وهذا أضعف الإيمان، هذا مع الإشارة إلى أن الهبات المتعلقة بمقاطعة المنتجات الدنماركية والفرنسية موسمية ومؤقتة ولا تنسم بالثبات والمنهجية فهي تبقى في إطار الهبات التي تنتهي بمرور أيام وعلى الأكثر أسابيع قليلة. من أين نبدأ لإعادة توجيه البوصلة؟

حتى نتجاوز جميع العوائق التي تطرقنا إلى بعضها وأية عوائق تعترض مسار الوعي لدى المواطن العربي يجب أن نتوجه إلى هذا المواطن بأبسط الخطاب وأقله كلفة عليه كبدائية، وذلك للحفاظ على حاضنة شعبية للأولويات الكبرى للأمة العربية، فالطلب يبدأ من تحديد نقاط مرجعية للحكم على الأحداث وما يترتب عليها من اتخاذ موقف إن أراد أن يطور سلوكه بالانتقال من حالة الانفعال الشعوري إلى حالة الفعل مهما كانت تلك الحالة الفاعلة، وذلك بوضع مقياس الحكم من زاوية مصلحة الأمة من نوافذها الرحبة كوحدة الأمة أرضاً وشعباً ومدى اقتراب الأحداث أو ابتعادها عن هذه النافذة أو من نافذة تحرير الأرض العربية وكسر الهيمنة أو تكريس الهيمنة والاحتلال أو من نافذة العدالة الاجتماعية وملكية الأمة لوسائل الإنتاج الكبرى والعدالة في توزيع الثروة وكسر الاحتكارات مقابل تكريس سلطة رأس المال أو الكمبرادور، من هذه النوافذ التي تحدد إن كانت مصلحة الأمة سوف تتحقق أم لا، وقتها يمكن للمواطن العربي أن يتبنى موقفاً بصرف النظر عن معتقده لأنها لا يتوقف عليها تخلياً عن القبائل أو الطوائف أو المذاهب أو الدين، فهذه المرجعيات ضمن إطارها الطبيعي وضمن حدود الاجتماع والتدين الطبيعي لا تمس بأي حال العلاقة بين الإنسان العربي وأمتة من جهة ومعتقده الديني أو خلفيته الاجتماعية بالانتماء إلى قبيلة أو حي أو محلة أو حتى منطقة جغرافية تحت سقف الوطن والأمة.

التنمية في إطار النيوليبرالية: المغرب نموذجاً إبراهيم حرشاي

يواجه المغرب كغيره من دول العالم الثالث تعثراً مزمناً في مساره الاقتصادي والتنموي، ما يستوجب في غمرة النقاش الدائر فيه حول "النموذج التنموي الجديد" الوقوف عند هذا التعثر الذي لم يأت محض صدفة، بل هو نتيجة لخيارات محددة لسياسات اقتصادية تم تسويقها كصفات جاهزة قادرة على حل مشاكل الصحة والتعليم والبطالة لدى المواطنين. إن تتبع سيرورة الاقتصاد المغربي الحديث ومراحل تطوره حتى وصوله إلى النموذج التنموي النيوليبرالي يستدعي استخلاص طبيعة التوجه الليبرالي الذي ظل يشكل جوهر السياسات الاقتصادية المتعاقبة منذ الاستقلال إلى حدود العقد الثاني من القرن الحالي. وقبل الخوض في هذا الجوهر المتجسد في الليبرالية والنزعة النيوليبرالية وجذورها السياسية في تاريخ المغرب المعاصر، سنتطرق أولاً إلى تعريف مفهومين أساسيين بالخطاب الاقتصادي المغربي وهما التنمية والتنمية البشرية - بغرض تسليط الضوء على تطور النموذج التنموي-الاقتصادي المغربي بأدنى درجة من الالتباس أو التشويش الاصطلاحي.

طفا مفهوم التنمية على سطح الحقل الاقتصادي وما جاوره من حقول معرفية مع انبثاق النموذج الاقتصادي الوطني أو الدولاني (Etatist) فترة ظهور التحديات الاقتصادية والاجتماعية في دول العالم الثالث إبان الموجات الاستقلالية. وفي مقابل مفهوم التنمية الذي يعرف بالنمو الاقتصادي والقدرة الإنتاجية للمجتمع، ظهر تصور آخر مقابل له بعد الحرب العالمية الثانية يضع التنمية في



إطار المساعدات والتوصيات التي تصدر عن الدول المتقدمة إلى الدول النامية، بصرف النظر عن الخلفية الأيديولوجية والسياسية للدول المتقدمة التي تتخبط في دعم كهذا، ما يجعل مفهوم التنمية في هذا الإطار شديد الارتباط بالعولمة والمصالح الجيو-سياسية للدول المتقدمة. ومع صعود النيوليبرالية ظهرت أفكاراً مناهضة للطرح التنموي الذي تتبناه المؤسسات الدولية والدول الغربية ونخبها المثقفة. ويطلق على هذه المدرسة التنموية اسم "ما بعد التنمية"، وما يميز هذه المدرسة المتكونة من الحركات الاحتجاجية ببعض مناطق دول الجنوب هو عدم طرحها لبديل حقيقي للنماذج التنموية السائدة نتيجة انكبابها بشكل خاص على نقد برامج التقييم الهيكلي لصندوق النقد الدولي وربط هذه البرامج بالهيمنة والاستعمار الغربي. وبالرغم من اتسام مدرسة "ما بعد التنمية" بالمقاربة النقدية وعدم طرحها لمشروع اقتصادي متكامل، إلا أن خطابها يتوازى مع بعض الحركات السياسية المدافعة عن حقوق الشعوب الأصلية في أمريكا الجنوبية أو مع تيارات فكرية كتيار "تراجع النمو" المناهض لثقافة الاستهلاك.

أما التنمية البشرية، فتفهم من خلال ما جاء في تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2002: "ففي كل يوم يمارس الإنسان خيارات متعددة بعضها اقتصادي وبعضها اجتماعي وبعضها

سياسي وبعضها ثقافي. وحيث أن الإنسان هو محور تركيز جهود التنمية، فإنه ينبغي بذل الجهود لتوسيع نطاق خيارات كل إنسان في جميع ميادين سعي الإنسان. فالتنمية البشرية تتمحور حول توسيع الخيارات المتوفرة للناس كي يفعلوا ويكونوا ما يقدرونه حق قدره في الحياة. فهي تهتم بالعملية التي يجري من خلالها توسيع الخيارات، وترتكز على النتائج التي تم تعزيزها". وبالنسبة لقياس إنجازات دولة ما في مجال التنمية البشرية يتم الاعتماد على مؤشر مركب من ثلاثة عناصر: أولاً، العمر المتوقع؛ ثانياً، المستوى التعليمي ويقاس عن طريق الجمع بين معدلات معرفة القراءة والكتابة، والجمع بين التعليم الابتدائي والثانوي والعالي ونسب الالتحاق بالمدارس، وثالثاً، مستوى النمو الاقتصادي ويقاس بنصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي. ومن المعلوم أن المزاجية بين التنمية البشرية والتنمية الاقتصادية لا تتحقق تلقائياً، إذ أن التنمية الاقتصادية المتصاعدة في بعض دول الجنوب قد تكون من صنع رأس المال الخارجي وتعكس بالتالي الأرباح التي يجنيها المستثمر الأجنبي. وفي هذا الصدد قالت منظمة أوكسفام في تقرير أصدرته في 2019 إن المغرب يفقد ما يصل إلى 2.45 مليار دولار بسبب التهرب الضريبي والاحتيال من الشركات متعددة الجنسيات التي غالباً ما تحول أرباحها إلى الخارج وتحديداً إلى دول الجناح الضريبية. ولذلك تصبح ضرورة تصحيح العلاقة مع المستثمر الأجنبي ولا سيما مع الشركات متعددة الحدود أولوية لرفع حجم الموارد المالية للمشاريع التنموية وخفض العجز المالي، إذ يمكن عملياً شن حملة لوقف التهرب الضريبي من قبل الشركات متعددة الحدود ورفع المعدلات الضريبية عليها حسب القطاع الذي تنشط فيه، بالإضافة إلى زيادة حصة الدولة في المشاريع الجديدة.

ويعد عام 1960 عام تبنى الليبرالية كمنهج لتدبير الشأن الاقتصادي بالمغرب. فبعد إعفاء حكومة إبراهيم حسمت السلطة المخزنية القطيعة مع خطاب القوى اليسارية المغربية التي كانت تروج لتدبير اقتصادي يقوم على أسس تحفيز الموارد الطبيعية وتوزيع عادل للفائض بين مختلف طبقات المجتمع، بالإضافة إلى ترقية دور الدولة في مواجهة استقبال رأس المال الأجنبي. وقد استقرت التجربة التنموية المغربية منذ تلك الحقبة في إطار رأسمالي، مع تنويع اقتصاد السوق كخيار استراتيجي بعيد المدى رغم مشاركة أحزاب ذات توجه أيديولوجي متباين أحياناً بحكومات مختلفة (حكومة عبد الرحمن اليوسفي نموذجاً). وتتجلى لبرلة النظام الاقتصادي المغربي في تمكن السلطة السياسية من فرض تصور لها للاقتصاد عبر إعطاء دور فاعل للقطاع الخاص المغربي، إضافة إلى تعزيز تواجد المستثمرين الأجانب عبر إعطائهم مكانة خاصة، حتى في سياق التأميمات التي شهدتها البلاد. والمؤكد في هذا الصدد أن الدولة المغربية أخذت تدابير تمنح للمستثمرين الأجانب إمكانية المشاركة في حدود 50 بالمائة من رأسمال المؤسسات الاقتصادية التي تمارس نشاطها داخل المغرب.



العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

وبرغم التحول الذي شهدته السياسة الاقتصادية المغربية نحو التخلي عن السياسة التوجيهية والتدخلية احتفظت الدولة نسبياً بسياسة المغربية مع بروز اتجاه دفع نحو تعزيز دور القطاع العمومي خاصة بين عامي 1973-1977. وقد طبقت الدولة جزءاً من البرنامج الاقتصادي الذي كانت تدعو إليه أحزاب اليسار عن طريق توسيع القطاع العام ورفع النفقات العمومية خاصة في القطاع الفلاحي والصناعي والتجاري. ومع حلول الثمانينيات، انخرط المغرب في برنامج التقويم الهيكلي لصندوق النقد الدولي ما جعل جلب الاستثمارات الأجنبية من محددات السياسة الاقتصادية. ومنذ تلك الحقبة أصبح المغرب على سكة جديدة للتنمية يتركز فيها على مقومات تبنى على الحد من التعريفات الجمركية وإلغاء دعم المستهلك وتشجيع تدفق الرساميل الأجنبية. وقد اندرج هذا التوجه على مستوى واسع من دول العالم كنتيجة لانتشار أطروحات النيوليبرالية أو الليبرالية الجديدة.

أما بالنسبة للتنمية البشرية والاجتماعية المنضوية تحت سقف التوجه الليبرالي للنموذج التنموي المغربي، فتعتبر "المبادرة الوطنية للتنمية البشرية" أهم مشروع أطلقته الدولة المغربية سنة 2005 تحت إشراف الملك محمد السادس تحسباً للتداعيات الاجتماعية الناتجة عن لبرلة المنظومة الاقتصادية. وقد حذر الخبير الاقتصادي لدى البنك الدولي جوزيف ستجلتز من هذه التداعيات، منبهاً إلى أن الدعوة إلى السوق الحرة تستدعي دوراً معيناً للدولة بغرض إدماج الفئات المقصية. وقد كانت هذه الدعوة لستجلتز من أهم الدعوات التي تم ترويجها بتسعينيات القرن الماضي لإدماج سياسة اجتماعية خاضعة لمنطق السوق تحت عنوان ما بعد إجماع واشنطن، لإتاحة الفرصة وإيجاد هامش للسلطات المحلية بالدول النامية للتدخل بشكل محدودٍ للتغطية على حدية نشاط القطاع الخاص والشركات العابرة للحدود. وتطلق هذه المبادرة من رؤية تسعى إلى معالجة الفقر والهشاشة الاجتماعية انطلاقاً من مشاريع محلية ومبادرات منظمات المجتمع المدني لخلق فرص شغل وتوفير الخدمات الاجتماعية الأساسية للشرائح المهمشة. وفي حالة المغرب، يمكن تقييم مردودية السياسة الاجتماعية النيوليبرالية بناءً على معطيات التقارير الدولية وفي مقدمتها تقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. ففي سنة 2006 احتل المغرب المرتبة 121، بينما وضع في المرتبة 114 سنة 2010، أما سنة 2020 فقد عاد إلى المرتبة 121 ما يضع المغرب في خانة الدول ذات التنمية البشرية المتوسطة.

وفيما يتعلق بترتيب دول الجوار احتلت الجزائر في سنة 2010 المرتبة 84 بينما حازت تونس وقتذاك على المرتبة 81. وجاءت الجزائر العام الماضي (2020) في المرتبة 91 عالمياً وصنفت ضمن مجموعة يطلق عليها "تنمية بشرية متوسطة"، ضمت كذلك تونس التي حازت على المرتبة 95 عالمياً والثانية مغارياً. وفي ذات السياق يلاحظ أن المرحلة التي تلت أحداث "الربيع العربي" لم تأت بأي نموذج تنموي حقق فيه أي تقدم لصالح الفئات المهمشة بالمنطقة المغاربية. ففي الدول المصدرة للنفط والغاز كليبيا والجزائر مثلاً تراجع نسبة التنمية على أكثر من صعيد وارتفعت مؤشرات الفقر بعد تراجع أسعار المحروقات عالمياً في ظل جائحة كورونا. لذا سيكون على هذه البلدان أن تترك منطق الربيع النفطي والمضاربة وأن تتخربط بشكل جدي في القيم الاقتصادية السليمة التي تركز على العمل والإنتاج والإبتكار.

إن أهم النقاط في هذا المجال هي التي تساعد ولو جزئياً على فهم إخفاق النموذج التنموي في بعده الاجتماعي، ففي حالة المغرب تتضح مؤثرات النموذج النيوليبرالي في النقاط التي أثارها الباحثان سامي زمني وكونراد بوخارت بخصوص الطبيعة الهيكلية "للمبادرة الوطنية للتنمية البشرية". فقد سلط الباحثان الضوء على غياب الصورة التشاركية التي روجت لها هذه المبادرة، وأوضحا أن المبادرة تم تقييمها كهيئة مندمجة ومتعاونة مع السلطات المحلية المنتخبة ومنظمات المجتمع المدني والقطاع العام والخاص، في حين أنه على أرض الواقع تمت هيكلتها بشكل عمودي حول ولاية الجهات الذين يعينهم المخزن والذين يشرفون بشكل مباشر على اللجان المحلية للتنمية البشرية، حتى أن الصلاحيات المالية والتخطيطية للمبادرة فوّضت لولاية الجهات بدلاً من وزارة المالية. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على إقصاء القائمين على المبادرة للسلطات المنتخبة والاعتماد على "مقاربة القمة نحو القاعدة"، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الصفة التشاركية للمقاربة ذاتها تتصف ببعيدٍ رسمي إذا أخذنا في الحسبان أن المكونات الوازنة من المجتمع المدني هي مؤسسات كـ "مؤسسة محمد الخامس للتضامن" أو "صندوق الحسن الثاني للتنمية الاقتصادية والاجتماعية".

الفكرة الأساسية هنا أن المشاريع التنموية -الاجتماعية يتم تأطيرها ضمن رؤية لا تبالي بالظلم الاجتماعي والاقتصادي كمصدر للحرمان والنهميش، بل على العكس تماماً. ويمثل مشروع "مدن بدون صفائح" الذي رأى النور بعد الأحداث الإرهابية التي شهدتها مدينة الدار البيضاء سنة 2003 نموذجاً للحلول النيوليبرالية الجاهزة.



فقد ترجم هذا المشروع العقيدة النيوليبرالية من خلال عملية إدماج أحزمة اليوس كملحق بالمراكز المعولمة فى المدن الكبرى تحت حجة أن العزلة المكانية والاقتصادية لهذه الأحزمة هو السبب الرئيسى للمأساة التى تعيشها هذه الفئة. ولذلك لا يمكن أن تُفهم هذه المشاريع الاجتماعية والاقتصادية إلا عبر منطق السوق ورأس المال العالمى، حيث أن القصد من هذه المقاربة هو رفع نسبة احتياط اليد العاملة داخل الدوائر المكانية التى تتواجد فيها الشركات الأجنبية. وتشكل قضية استغلال اليد العاملة عن طريق وضعها فى خدمة المستثمرين وطبقة الكومبرادور لب الموضوع لمثل هذه المشاريع التنموية النيوليبرالية. أما نظرياً فيتضح مغزى هذه السياسة على هذا النحو فى الفكر الاقتصادى الماركسي: "كلما زاد عدد القوى العاملة العاطلة عن العمل، زاد هذا من انخفاض معدلات الأجور؛ على العكس من ذلك، إذا كان هناك الكثير من الوظائف المتاحة والبطالة منخفضة، فإن هذا يميل إلى رفع متوسط مستوى الأجور".

وأمام هذا الوضع الاجتماعى والاقتصادى الخاضع لأجندات المؤسسات المانحة، نعود إلى ضرورة طرح إعادة إحياء تضامانات القرب التى ستمكن المغرب والدول المغاربية من إيجاد متنفس جديد، علماً أن الانخراط فى مشروع جهوى سيمكن هذه الدول من تقوية موقعها التفاوضى إزاء الأطراف الاقتصادية الأخرى وسترفع جاذبية البلدان المغاربية بالنسبة للاستثمارات الخارجية إذا اندمجت فى فضاءها الإقليمى الطبيعى. ولعل صعود الدول الآسيوية يشكل حافزاً لدول المغرب العربى للاستفادة من النماذج التنموية لهذه الدول كنموذج "الأوز الطائر" الذى يعتمد على استيراد السلع من أقرب بلد متقدم صناعياً داخل نفس الإقليم، فيحاول البلد المستورد إنتاج نفس السلعة بتمويل مشترك أو بدون تمويل مشترك من البلد الأكثر تقدماً، ثم تلحقها مرحلة تصدير السلعة من البلد المستورد إلى بلد أقل تقدماً داخل نفس الإقليم. ويمكن ربط هذا النموذج بنموذج "مثلثات النمو" بين مجموعة من البلدان المغاربية المتجاورة لإنشاء صناعات تصديرية بقدرة تنافسية عالية على الصعيد الإقليمى والدولى فى حالة نجاح الأطراف المتحالفة على دمج المهارات البشرية والتقانية والفنية والإدارية فى جسم صناعى موحد، من أجل إيجاد صيغ مبتكرة للتعامل مع منغطفات الاقتصاد الدولى وتقلبات الطلب فيه، ولتنمية العلاقات البينية بين دول إقليم واحد من جهة وبين بلدان الجنوب من جهة أخرى. إن اندماج هذه الدول اقتصادياً فيما بينها وتبنيها نهج التنمية المستقلة يجعلها أنجح فى بناء القدرات الاقتصادية والعلمية والعسكرية وأكثر قدرة على توسيع دائرة الطبقة الوسطى، بعكس الدول التى اختارت أن تدور فى فلك "وفاق واشنطن" وأن تبقى مكبلة بشروط وإملاءات البنك الدولى وصندوق النقد الدولى.

لا بد أن تعد الأزمنة الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن النموذج الليبرالى فرصة لاقتناص المشروع البديل التى يمكن أن ينبعث منه. هذا هو الرهان المطروح على الاقتصادات العربية عموماً والمغاربية خصوصاً، فالخروج من الأزمة التنموية يتطلب الانخراط فى استراتيجية الاندماج الإقليمى التى تحمل فى ذاتها بذور التنويع الإنتاجى ووفورات الحجم.

المراجع:

- أقصبي: إجراءات النموذج التنموي الجديد من شأنها تعميق الازمة المالية للمغرب عوض حلها
<https://aham24.com/2021/05/27/%D8%A3%D9%82%D8%B5%D8%A8%D9%8A-%D8%A5%D8%AC%D8%B1%D8%A7%D8%A1%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%85%D9%88%D8%B0%D8%AC-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%86%D9%85%D9%88%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D8%AF/>
- محمود عبد الفضيل، العرب والتجربة الآسيوية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012.
- سالم توفيق النجفي، التنمية العربية بين الثوابت والمتغيرات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2012.
- تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2002 : https://www.un.org/ar/esa/ahdr/pdf/ahdr02/AHDR_2002_Complete.pdf
- جواد النوحى، اللبرلة الاقتصادية فى المغرب وتفاعلها مع السياسى، المجلد المغاربية للسياسات العمومية فضاء للحوار بين الجامعة والفاعلين، سلسلة "الليبرالية فى المغرب"، العدد 1، مطبعة طوب بريس- الرباط، 2009.
- Oxfam: un Maroc égalitaire, une taxation juste : https://oi-files-d8-prod.s3.eu-west-2.amazonaws.com/s3fs-public/file_attachments/rapport_oxfam_2019_un_maroc_egalitaire_une_taxation_juste.pdf
- Sami Zemni&Koenraad Bogaert(2011), Urban renewal and social development in Morocco in an age of neoliberal government, Review of African Political Economy,38:129,403-417, DOI: 10.1080/03056244.2011.603180.
- Noel, Caſtree, Rob Kitchin&Alisdair Rogers, Oxford dictionary of human geography, Oxford university press, Oxford, 2013.
- Koenraad Bogaert, Marokko zonder sloppenwijken(2009),AGORA, jaargang 25-nummer 2.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

مفهوم الأمة في العصر العربي الوسيط

ناجي علوش (مقتطفات من بحث نُشر في العدد 42 من مجلة «الوحدة» الشهرية في آذار/ مارس 1988)

كيف استخدمت كلمة «أمة» في الحياة الثقافية العربية في العصر الوسيط؟

لقد استخدمت بمعنى الجماعة فقط، وإن غلب عليها مدلولان: الأول: مفهوم الجماعة الدينية المرادف للملة. الثاني: مفهوم الجماعة الاجتماعية المرادف للقومية.

ولما كان استخدامها الأول معروفاً، وغير مختلف فيه، فإن هذا البحث سيحاول أن يثبت أن المدلول الثاني دارج في الكتابة الفلسفية والاجتماعية والتاريخية العربية، وأنه أكثر وضوحاً وتحديداً مما يُظن.

ويعتقد كثيرٌ من المثقفين وأساتذة التاريخ والاجتماع والفلسفة العرب، أن مفهوم الأمة، بالمعنى الاجتماعي لم يكن معروفاً عند العرب، وأن كلمة «أمة»، حيث وردت، عنت بعد الإسلام الجماعة الدينية، لا أكثر، وأن كلمة «أمة»، أي الجماعة من الناس التي استقرت، وأقامت علاقات تاريخية فيما بينها، فقد ذلك إلى بروز سمات محددة لها، لم تكن معروفة في التاريخ العربي، ويضيف هؤلاء أن أية محاولة لإثبات نقيض ذلك، ستكون نوعاً من تحميل الكلمة مما لا تحتمل.

ولذلك، فإننا نجد من الضروري إيضاح هذه المسألة بشواهد من التراث العربي في العصر الوسيط.

وسنقدم هنا نوعين من الشواهد:

الأول: شواهد من الاستخدام العام.

الثاني: شواهد من التعريفات.

1 – شواهد من الاستخدام العام:

تزرخر كتب الأدب والتاريخ باستخدام كلمة «أمة»، وإذا كانت ترد بمعنى ملة، كما جاءت في بيت البحتري (821-897م

/ 206-284 هـ) الذي يمدح فيه الخليفة المعتز ابن المتوكل:

لقد حمل المعتز أمة أحمد
على سنن يجري إلى الحق لآحبه
تدارك دين الله من بعد ما عفت
معالمه فينا وغارت كواكبه

فإن كلمة «ملة» هي الأكثر وروداً في هذا المجال، وهذا واضحٌ من القرآن الكريم، كما في الآية: (قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) – آل عمران 95 – وهو واضحٌ أيضاً في أسماء الكتب المختصة بمناقشة المذاهب والأديان، مثل الملل والنحل.

وترد كلمة «أمة» عامة في الشعر، كما في بيت المتنبي: (أنا في أمةٍ تداركها الله، غريبٌ كصالح في ثمود). أو في بيت المتنبي الآخر: (تجمع فيه كل لسان وأمةٍ فما يفهم الحداث إلا التراجم). أو قول المتنبي: (مالي أكتم حبا قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأمم).



ولا يقدم شارح التبيان الذي كتبه أبو البقاء العكبري تفسيراً لكلمة الأمة في البيت الأول، أو الثاني، أو الثالث، وإن كان واضحاً أن "أمة" في الأول تعني الجماعة، وأن هذه الجماعة جماعة قومية، مثل ثمود، وصالح أنكره قومه. أما في البيت الثاني فقد جاءت عطفاً على لسن، أي لغة، وعلى الرغم مما تعنيه من علاقة بينهما، إلا أنها يمكن أن تعني هنا كل جماعة، ممن تربطهم رابطة اللغة أو روابط أخرى. أما في البيت الثالث، فإنها تعني الجماعات دون تحديد، وإن كانت إشارة المتنبّي في بيت آخر من القصيدة عينها إلى العرب والعجم تتضمن إمكان الإشارة للأمة بالمعنى القومي.

إلا أن استخدام الكلمة لا يظل بهذا الغموض، إذ نجد الثعالبي (430 هـ -) يقول: "أعتقد أن محمداً (ص) خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة". والثعالبي من ذوي الاختصاص في اللغة العربية. وهو يسمي الإسلام "ملة" والعرب "أمة"، وخير الأمم. ومع ذلك، فإن الثعالبي لا يذكر الأمة عندما يتعرض لترتيب جماعات الناس.

ونلاحظ أن كلمة "أمة" بمعنى الجماعة القومية كثيراً ما ترد في كتب التاريخ والجغرافيا والاجتماع. وقد جمع المستشرق (ألكسندر سيلل) كثيراً من هذه النصوص في كتابه "أخبار أمم المجوس من الأرمان وورنك والروس"، وتكرر كلمة "أمة" في أكثر هذه النصوص بمعنى الجماعة القومية.

ولاحظ جورج زيدان أن "بعض مؤلفي العرب" خصصوا "فصولاً في كتب الأدب والتاريخ والسياسة لوصف الأمم المعروفة عندهم ومزايا كل منها". ومن الذين ذكرهم جورج زيدان:

- 1 - الحسن بن عبدالله، في كتابه "آثار الأول في ترتيب الدول".
- 2 - القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي، في كتابه "طبقات الأمم".

كما أشار جورج زيدان للمسعودي (توفي 346 هـ) والقزويني (1203 - 1283 م). ولم يذكر جورج زيدان:

- (1) يوسف بن علي القرطبي (توفي 463 هـ) في كتابه "القصص والامم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم وأول من تكلم بالعربية من الأمم".
- (2) ابن مسكويه أحمد بن محمد (توفي 421 هـ، 1030 م): "تجارب الأمم وتعاقب الهمم".

وهناك كتب كثيرة تحمل كلمة الأمم في عناوينها، مثل: "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم". وتدل الدراسة التي تعاطت مع المسألة على وجود وعي بها انعكس على صعيدين:

الأول: صعيد الاستخدام العام.

الثاني: صعيد التعريفات.

فعلى صعيد الاستخدام العام، حقلت الكتب المشار إليها بالكثير من الأحاديث عن أمم كثيرة، بعضها ينتمي للإسلام كالفرس، وبعضها لا ينتمي، وبعضها قائم موجود كالترك، وبعضها من الأمم الخالية، أو الدائرة كالكلدانيين.

ويجدر بنا أن نقدم هنا نموذجين لمؤرخين بارزين هما المسعودي وابن خلدون (1322 - 1406 م / 732 - 808 هـ) قدما في هذا المجال فهماً متقدماً، من دون أن يلجأ أي منهما للتعريفات الفلسفية.

1 - المسعودي: وتنوع أهمية المسعودي مما يلي:

أ - أنه في نظره للتاريخ القديم، أي قبل الإسلام، اعتبره تاريخ أمم. لذلك أكثر من استخدام الأمم الخالية والأمم الدائرة. وقد اعتبر أن جل الأمم كانت سبعا في سالف الأزمان، وأنه كانت لكل منها مساكنها ولغتها "وما بانث به كل أمة من غيرها". ويحدد المسعودي هذه الأمم السبع، فهي: الفرس والكلدانيون واليونانيون والروم والصقالبة والفرنجة ولوبية وأجناس من الترك وأجناس من الهند والصين وسيلي. وتتميز كل أمة من هذه الأمم بثلاثة أشياء "بشيمهم الطبيعية وخلقهم الطبيعية وأسننتهم".



العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

ب - أنه لم يدرج النسب من بين عوامل تكوين الأمة، ولم يجعل الوحدة السياسية شرطاً من شروط وجود الأمة، لأن الفرس انقسموا إلى وحدات سياسية إذ «تغلب كل رئيس ناحية على ناحيته» ومع ذلك ظلت أمة الفرس موجودة. وإن كان يربط لدى الحديث عن كل أمة والملك باللسان، كما يقول عن جبل القبيح...«وفي هذا الجبل اثنان وسبعون أمة، كل أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها».

ج - أنه لم يُدرج الدين من بين عوامل تكوين الأمة، ولم يستخدم كلمة الأمة الإسلامية. والمسلمون عنده «أهل الملة».

وبذلك يكون المسعودي مؤرخاً بارزاً، درس التاريخ باعتباره تاريخاً اجتماعياً، وأدرك وجود الأمم، وحاول أن يحدد أسباب التباين بينها. ورغم وجود حاجة إلى تدقيق معلوماته حول التاريخ القديم والتاريخ المعاصر له، فإن إشارته إلى الكلدانيين ومملكتهم ولغتهم بحاجة إلى دراسة خاصة لأنه يعكس وعياً لمسألة العلاقة بين سكان الجزيرة العربية والشام في الأزمان الغابرة، ومسألة العلاقات اللغوية بين سكان الأرض التي أشار إليها.

2 - ابن خلدون:

وابن خلدون في مقدمته يقدم لنا فهماً آخر للأمة، فهو يرى:

أ - أن النوع الإنساني ينقسم إلى أمم، وهي تختلف «بسماتها وشعارها»، وليس هذا الاختلاف ناتجاً عن الأنساب فقط «فإن التمييز للجيل أو الأمة، يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبنو إسرائيل والفرس، ويكون بالجهة والسمة، كما للفرنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب، كما للعرب، ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم». ويعد ابن خلدون نسبة هذا الاختلاف إلى الأنساب فقط «من الأغاليط التي وقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات، وإن هذه كلها تتبدل في الأعقاب، ولا يجب استمرارها». ولقد ذكر ابن خلدون العوامل المؤثرة في تكوين الأمم، وترك الباب مفتوحاً، لأنه ليس بصدد تعريف نظري، ولأنه يرى أن هناك عوامل متعددة، لا يسهل حصرها.

ب - لم يجعل ابن خلدون الدين من عوامل تكوين الأمم. وقد استخدم كلمة «الملة» للتعبير عن الانتماء الديني، كقوله: «فتمكن إليه الملة وأهلها» أو «لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم، كما في الملة الإسلامية»، كقوله عند الحديث عن الخلافة والإمامة: «فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه».

ج - لم يشر ابن خلدون إلى اللغة باعتبارها من السمات الخاصة بالأمم، ولكنه عندما كان يتحدث عن الأمم، كان يشير إلى لغاتها، كقوله: «أعلم أن لغات أهل الأمصار، إنما تكون بلسان الأمة، أو الجيل الغالبيين عليها... ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية... والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية. من الغلب على الأمم... فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام، وطاعة العرب، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك و صار اللسان العربي لسانهم».

ومع أن ابن خلدون كان يقرن الأمة بالجيل، إلا أن هذا لم يشوش مفهوم الأمة لديه، وإنما أعطى كلمة الجيل معنى كلمة الأمة. والعلاقة بينهما هي علاقة تعاقب الأجيال، أي التطور، في تكون الأمم وتطورها.

وسنقدم بعد هذا نموذجين آخرين عنياً بتحديد تعريف للأمة، وإن كان هذا ضمن سياق بحثٍ فلسفي، كما فعل الفارابي، أو ضمن سياق تحديد دور الأمم في تاريخ العلوم كالفاضي صاعد.

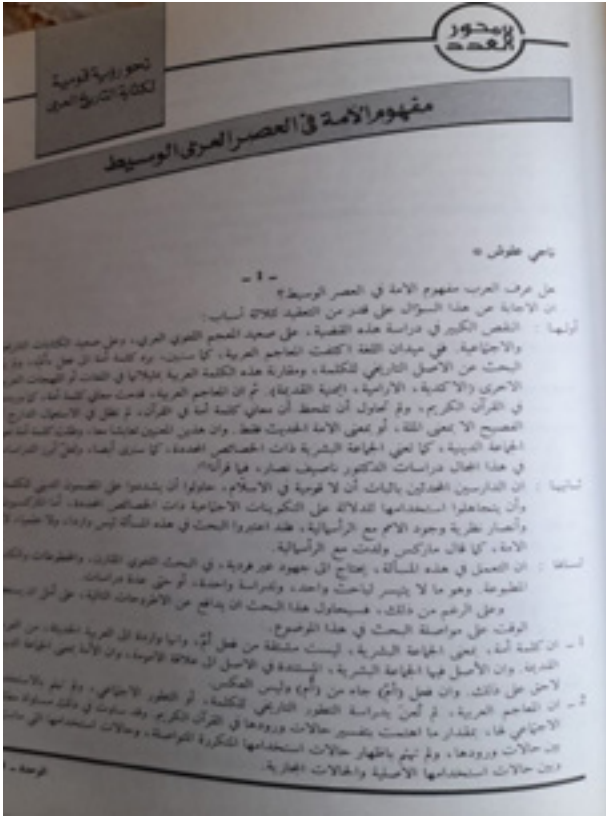
1 - الفارابي:

يبحث الفارابي في قضية الأمة في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» و«السياسة المدنية».



لائحة القومي العربي

العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد



يتحدث في الكتاب الأول عن حاجة الإنسان للاجتماع والتعاون، ويرى أن "الاجتماعات الإنسانية عظمى ووسطى وصغرى. فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة. والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة. والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من سكن أمة".

ويحاول الفارابي أن يحدد الارتباط والتحان والائتلاف، فيذكر وجهات النظر المختلفة. ومن ذلك: "الاشتراك في الولادة، والاشتراك في التناسل. واشتراك في الرئيس، أو الإيمان والتحان والتعاهد. وآخرون رأوا أن الارتباط هو بتشابه الخلق والشيم الطبيعية والاشتراك في اللغة واللسان، وأن التباين يتباين هذه. وإنما الأمم تتباين بهذه الثلاث. وآخرون رأوا أن الارتباط هو بالاشتراك في المنزل، ثم الاشتراك في المساكن، ومنها الاشتراك في الصنائع، ومنها الاشتراك في ثريدهم".

كذلك يشير في "كتاب تحصيل السعادة" إلى "ما وطنت به تلك الأمة بالطبع المشترك من الملكات والأفعال الإنسانية"، كما يشير أيضاً إلى أن "المساكن قد تولد في أهلها أخلاقاً مختلفة".

أما في كتاب (السياسة المدنية)، فإن يقول: "والجماعة الإنسانية الكاملة على الإطلاق تنقسم أمماً. والأمة تتميز عن الأمة بشيئين طبيعيين: بالخلق الطبيعية والشيم الطبيعية، وبشيء ثالثٍ وضعي، وله مدخل في الأشياء الطبيعية، وهو اللسان، أعني اللغة التي بها تكون العبارة. فمن الأمم ما هي كبار ومنها ما هي صغار".

ويعيد الفارابي هذا الاختلاف إلى عوامل طبيعية. ويفرق الفارابي بين الملة والأمة، ولا يخلط بينهما أبداً.

2 - القاضي صاعد، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد التغلبي (420 - 462 هـ / 1029 - 1070 م).

ويرى القاضي صاعد في كتابه (طبقات الأمم):

أولاً: "أن جميع الناس في مشارق الأرض ومغربها وجنوبها وشمالها، نوعٌ واحدٌ... فالأصل واحدٌ. ثانياً: أن الناس "يتميزون بثلاثة أشياء: الأخلاق والصور واللغات".

ثالثاً: "وأن الناس كانوا في سالف الدهور وقبل تشعب القبائل واقتراق اللغات سبع أمم: الفرس والكلدانيون واليونانيون والروم والفرنجة والقبط وأجناس الترك والهند سند والصين". ويحدد القاضي صاعد مساكن كل أمة، كما فعل المسعودي.

ويلاحظ عند قراءة كتاب طبقات الأمم ما يلي:

1 - أن القاضي صاعد صنف البشر باعتبارهم أمماً، وحدد ما "يميزهم" وجعل اللغة عاملاً، وقرنها بعاملين آخرين هما الصور والأخلاق، وهو ما يمكن أن يسمى الخلق والشيم الطبيعية، كما سماها المسعودي أو الفارابي، وما يمكن أن نسميه اليوم الهيئة والعادات والتقاليد.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

وإذا كانت اللغة تتضمن الثقافة المشتركة، فإن العادات والتقاليد تتضمن التكوين النفسي المشترك. وهذان العاملان يتضمنان العلاقة التاريخية. أما الهيئة، فربما كانت أكثر بروزاً، عندما كان البشر يعيشون منعزلين أو شبه منعزلين، وكان التفاعل معدوماً أو محدوداً.

فإذا أضفنا إلى ذلك عوامل المكان، أي الأرض، الذي يذكره القاضي صاعد لدى تعريف كل أمة، توافرت لدينا العوامل الرئيسية في تكوين الأمم.

وللقاضي صاعد كتاب اسمه "جوامع أخبار الأمم، من العرب والعجم" يفيدنا اكتشافه ونشره كثيراً في هذا المجال. ويشير القاضي صاعد إلى هذا الكتاب في كتابه طبقات الأمم.

2 - أن القاضي صاعد يرى عملية تكون الأمم، فالناس "كانوا في سالف الدهور، وقبل تشعب القبائل وافتراق اللغات سبع أمم"، وهكذا فوجود الأمم ليس خالداً، وافتراق اللغات، كما يسميه، من مظاهر وجود أمم جديدة. ولم يدخل صاعد في بحث هذه التفاصيل، لأنه معنيٌّ بالأمم السبع التي أشار إليها واهتمامها بالعلوم، أكثر مما هو معنيٌّ بقضية وجود الأمم.

إلا أن القاضي صاعد في كتابه طبقات الأمم يقدم لنا ثلاث أمم مرتبطة بوجود العرب التاريخي، وهي العرب والكلدانيون والقبط. فما الذي دعاه إلى اعتبار الكلدانيين والقبط أممين؟ (وهي مسألة خلافية تستند إلى رواية غير دقيقة، عند القاضي صاعد وعند المسعودي، لكن ما يهمنا هنا هو تصنيف هذين العالمين في العصر العباسي للبشر على أساس قومي منذ الزمن الغابر).

إن ما قدمناه يكفي للدلالة على أمرين:

الأول: أن كلمة "أمة" لم تؤخذ بمعنى جماعة دينية فقط. وأن كلمة "ملة" كانت أغلب في هذا الميدان. الثاني: أن كلمة "أمة" استخدمت بالمعنى الذي تستخدم به اليوم، للدلالة على جماعة اجتماعية، تكونت تاريخياً، وارتبطت بعوامل التطور المشترك، من الأرض إلى اللغة، ومن السلطة السياسية إلى العادات والتقاليد.

وتؤدي القناعة بهذه الحقيقة إلى أمور عدة:

أولها: إعادة دراسة التاريخ العربي على ضوء هذه الحقيقة ومحاولة اكتشاف دور هذا العامل من بين عوامل أخرى: الأديان والمذاهب والصراع على النفوذ في مدى جغرافي معين إلخ... وعلاقة هذا العامل بالعوامل الأخرى، بالصراع الطبقي أساساً.

ثانيها: أن وجود الأمم أقدم من ظهور الرأسمالية، وهو ما يستدعي العودة إلى دراسة نظرية ماركس-أنجلز حول نشوء الأمم.

ثالثها: إعادة دراسة تاريخ الأمة العربية، انطلاقاً من هذه الحقيقة، ومحاولة اكتشاف علاقات العرب بالأقوام العربية القديمة (مثل الكلدان والقبط) كما فعل المسعودي والقرطبي ومحمد عزة دروزة حديثاً.

(لم يتم نسخ قائمة المراجع لأنها أطول من المادة ذاتها).



العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

الصفحة الثقافية: الفيلم السوري (لآخر العمر)

طالب جميل



كم زمنٍ سنحتاج لنروي ونكتب ونسرد أحداث الحرب على سورية!
كم مجلدٍ من مجلدات التاريخ سنحتاج لنوثق بطولات وأمجاد من دافعوا وقاوموا واستشهدوا من أجل الأرض السورية!
كم من بطلٍ وُري الثرى وغاب ملطخاً بدمه وهو يهتف سورية... سورية؟!
كم حكاية ستروي؟ وكم قصة ستحكي؟ وكم فيلماً سيُشاهد؟ وكم دمة ستسقط من عيون الأمهات وهن يروين لأولادهن ويستعرضن سيرة من تبرعوا بأرواحهم ليعيش غيرهم بأمان ولتظل سورية غصة في شوكة الأعداء؟
لقد كانت الحرب الأشد ضراوة بين كل الحروب، قاتل فيها الرجال بكل بسالة وصمدت فيها النساء صمود الأشجار، وابتلعت الأرض كل باغٍ ومعتدٍ.

يروى لنا المخرج العربي (باسل الخطيب) في فيلمه الروائي الطويل (لآخر العمر) حكاية سورية خالصة تحمل شجناً عربياً من حكايات البطولة عن الأبطال الذين كانوا يحاربون بالكلمة وكان سلاحهم الميكروفون وكانت كاميراتهم تقف بوجه الإعلام الكاذب والمزيف الممول من الجهات المعادية المرتبطة بالخارج وتتصدى بكل بسالة. كان لا بد للهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون في سورية أن تتولى إنتاج هذا الفيلم، خاصة وأنه يتناول التحديات التي واجهت الإعلام الوطني السوري والإعلاميين أثناء تغطيتهم لأحداث الحرب وتجوالهم بين ساحات القتال ومواقع المعارك والاشتباكات، والمخاطر التي تعرضوا لها خلال سنوات الحرب وهم يقومون بمواجهة أشرس عمليات التضليل الإعلامي التي شنت على سورية.

يستعرض الفيلم قصة اختطاف كادر إعلامي تابع لقناة "الإخبارية السورية" أثناء قيامهم بتغطية أحداث الحرب من قبل إحدى الجماعات الإرهابية التكفيرية، ويتم سجنهم وتعذيبهم وإرهابهم بتهمة التعاون مع الجيش، إلى أن يتمكن أفراد الجيش العربي السوري من نزع الإرهابيين وملاحقتهم وتحرير المخطوفين.

أبرز ما يميز هذا الفيلم هو واقعيته فهو يتناول حكاية حقيقية حدثت مع كثير من الإعلاميين السوريين، ومشاهد الفيلم تعكس الصورة على حقيقتها خاصة وأنه تم تصويرها في أحياء حي جوبر الدمشقي وهو الحي الذي عانى لسنوات من جرائم الإرهابيين فتعرضت مبانيه للهدم والدمار وتعرض أهله للقتل والحصار والتشريد، فيلاحظ في هذه المشاهد مدى الجهد المبذول من المخرج وكادر الفيلم لتقديم الصورة على حقيقتها من دون مبالغة أو تجميل.

الشخصيات الرئيسية في الفيلم قدمت عبر أدوارها وجهات نظر تبدو من زاوية بأنها وطنية لكنها في الواقع كانت حقيقية فقد كانت تعبر بعفوية عن انتماء الإنسان الطبيعي لوطنه وانحيازه لإنسانيته بكل بساطة. فالإعلامية (لارا /رنا شمس) المراسلة الإخبارية التي اختطفت كانت تعتبر الحرب معركة شخصية بالنسبة لها، ورغم أنها كانت تعاني من ارتجاج باليد نتيجة شظية تعرضت لها، إلا أنها ظلت تنتقل بين مواقع القتال وعبر الجبهات بكل شجاعة وتجند نفسها بأنها تقوم بدورها مثل أي جندي أو موظف أو عامل، حتى أنها رفضت ترك الطفلة (ياسمين) عندما جاءت الأوامر بالخروج من الموقع لتُشاهد بأم عينها حكاية من حكايات صمود الأهالي في بيوتهم والتصاقهم بأرضهم رغم المخاطر.



العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

أما (العقيد عيسى / وائل رمضان) الذي كان عندما يعرف عن نفسه يقول أنه عسكري ونقطة، فعلى الرغم من انشغاله بمرض والدته وعدم تمكنه من التواجد إلى جانبها، إلا أن ذلك لم يزد له إلا شجاعةً وصموداً وإصراراً على القيام بواجبه العسكري، ولم يستشهد إلا بعد أن أنجز مهمته في تحرير الفريق الصحفي.

المجندة (رشا) والتي انتسبت للجيش بعد أن استشهد خطيبها ومن باب الوفاء لروحها اعتبرت ذلك واجباً لا يمكن أن تنتازل عنه فظلت تقاتل وتدافع عن وطنها إلى أن نالت الشهادة ولحقت روحها بروح خطيبها.

أما المصور الفلسطيني العجوز (زيناتي قدسية) صاحب الحكايات مع الصور المعلقة على الجدران في الاستوديو الخاص به، فقدم وجهة نظر حقيقية باسم كل فلسطيني عاش وترى في سورية وأكل من خيراتها وعشق ترابها ولمس دماء حضانها، فبادلها الحب والوفاء وكان من الصامدين الذين آمنوا بأن هذا الحمى لا يحميه إلا الأوفياء الذين رضعوا من حليب القومية في هذه الأرض.

هذا المنجز الفني السوري لم يخرج بهذه الصورة أيضاً إلا بجهود وعقول وإبداع سوري، فكاتب الفيلم (سامر محمد اسماعيل) استطاع صناعة سيناريو فيلم برسالة وطنية واضحة تقدر قيمة التضحيات والدماء التي نذرت لأجل هذا الوطن، أما الموسيقى التصويرية للفيلم فقد صاغها الموسيقي (سمير كوياتي) والتي تركت أثراً منسجماً مع أحداث الفيلم، أما أغنية الخاتمة في الفيلم والتي كانت مفعمة بكثير من الدموع والورود لأنها غنيت لأرواح الشهداء من الجيش والإعلاميين فكانت بصوت الفنانة الراحلة (ميادة بسيليس) هذا الصوت المنتمي الخلاب الذي خسرت سورية مؤخراً.

الشهداء الذين يرقدون في المقابر ليسوا مثل باقي الأموات، إنهم أرواحٌ متألمةٌ تنتابهم الغبطة والسرور بما قدموا، أناروا لنا الدروب وزينوا لنا الطرقات وزرعوها بأشجار الزينة، أنقذونا من ظلام الأعداء وحافظوا على ما تبقى لنا من كرامة، وقطفوا لنا شمس الأمل. تفوح من دمائهم رائحة الفردوس وتعلو قبورهم المتواضعة لتكون أكبر من كل القصور والبيوت الفخمة التي يسكنها العملاء والمتخاذلون والمطبعون، فمن كانت تضحيته لوطنه وعروبته فتضحيته إلى وطنه وعروبته.

ما حدث في سورية خلال الحرب لم يكن شأناً سورياً فحسب، فقد أريد لهذه الحرب أن تبدأ في سورية وألا تنتهي إلا بعد أن تشتعل بلدانٌ أخرى في وطننا العربي، لكن أسطورة الصمود السورية أجهضت أحلام من أرادوا ذلك، وشاءت سورية الوطن والدولة والشعب والقيادة والمخلصون من العرب والحلفاء أن تسير الأمور إلى غير ما أرادوا، لكن ذلك لم يكن بالمجان بل كان الثمن دماءً وأرواحاً وتضحياتٍ وبغير هذه الأثمان لا تصمد الأوطان ولا تنكسر شوكة الأعداء ولا تنتصر لأنفسنا ولأرضنا ولمستقبلنا.



قصيدة العدد: شمس العروبة/ رشيد سليم الخوري



شقي حجابك قبل شقّ الرمس لي
 سبق الحمام إليه لم يستعجل
 جفني في ليل الحفير الأليل
 رغم العصابة والحجاب المسدل
 ما لا يرى غير النبي المرسل
 عيني مولهة وحدي فيوصل
 ما أذنت بالفجر لو لم تأفل
 كلفت نفسك وصل ما لم يفصل
 فقد الحبيب وأختها لم تهمل
 حبّ الأخ العربي بالمتحول
 جاري القريب وإخوتي في المنزل
 ويؤولون النقد شرّ مؤول
 أقسمت إلا بالحبيب الأول
 إلا الذي قالت بلادي قلبه لي
 شدوي على سرواتها وتنقلي
 أبلى الزمان مع العظام وما بلي
 مهجّ تسيل على سفار الأنصل
 يمتّ لي قبر يزار ... ولي ولي

شمس العروبة عيل صبر المجتلي
 وتداركي مستعجلاً لو لم يخف
 أرى نهارك قبل إغماض الردى
 إنني لمحت سنالك في غسق الدجى
 ولقد يرى بالروح شاعر أمة
 ما الشام ما بيروث في البلوى سوى
 وكواكب الشهداء فيك بشائر
 يا هاتفاً بالفرقدين تلاقياً
 رأيت ويحك مقلّة هملت على
 من هام في حبّ الغريب فلسث عن
 وأعز من دنيا الأعرزة كلها
 يا من يعدون الدفاع تهجماً
 وحياة لبنان وأرزته وما
 لم أنو ما تعنون قط ولم أقل
 إنني لأصدأخ العروبة طاب لي
 ووقفت إيماني على المجد الذي
 روى شفاقه وصرح وردّه
 شهداؤه ملء البلاد فأينما

بعد خمسة وأربعين عاماً قضاهما الشاعر القروي رشيد سليم الخوري في المهجر، ما برح الإيمان بالعروبة وتحقيق الوحدة العربية حلماً يهدده في شغاف قلبه وشعوراً يستنهض همته لينطق شعراً لا ككل الشعر، شعراً يبوح بأمال العرب من المحيط إلى الخليج ويدعو إلى الثورة التي لا تنام في كل زمان ومكان حتى إنجاز الوحدة العربية، وحدة الدم والمصير.

•قصيدة شمس العروبة، رشيد سليم الخوري (1887 - 1984 م).



العدد رقم (77) صدر في 1 أيلول عام 2021 للميلاد

كاريكاتور العدد: من المسافة صفر



انتهى العدد